

توثيق صلة الأدب المعاصر بالتراث ضرورة قومية ودينية

مقدمة :

عندما طلب مني ان اعد كلمة لهذا المؤتمر الموقر كان اول شيء قمت به هو تصفح الموضوعات التي وضعت في جدول اعمانه . وسعدت من ان ادركت منذ النظرة الاولى الى هذه الموضوعات انها مترابطة ان تم يكن متداخلة فيما بينها ، حتى انه من الصعب ان يستول الاسس احدها دون ان يتعرض للموضوعات الاخرى . ولكن بالرغم من هذا الترابط او التداخل ، فاني كنت مضطرا - بحكم النظام والوقت - ان اقصر كلمتي على موضوع واحد من تلك الموضوعات . وقد كان الموضوع الذي وجدته اعرب اني ميولي واهتماماتي الادبية والثقافية وانسب الى ظروف وضعه تخصصي التي اصبح يحكمها بعيدا كل البعد عن العرنة الادبية بمعناها الفني الخاص ، هو الموضوع الثاني في جدول الاعمال ، المتعلق بمشكلة الادب المعاصر وعلاقته بالتراث .

ولكن من العوامل الشخصية المرتبطة بتكويني العقلي والثقافي ، كنت مضطرا ان اقف من هذا الموضوع موقفا محافظا يرى ضرورة توثيق الصلة بين ادبنا العربي المعاصر وبين تراثنا العربي الاسلامي الخالد ، لان في توثيق الصلة بين الجانبين حفاظا على تراثنا وتدعيم لقوميتنا وتأكيدا لشخصيتنا الثقافية والادبية وربطنا بحضارتنا بماضيها وتوفيقا بين الاصالة والمعاصرة في نفاستها . واستجابة لاوامر وتعاليم ديننا الاسلامي التي تدعونا الى المحافظة على تراثنا العربي الصالح الذي من عنصره اللغة العربية الفصحى والادب السليم . وتعبير اوضح عن هذا الموقف المحافظ تجاه هذا الموضوع اقول منذ البداية : ان توثيق الصلة بين الادب المعاصر وبين التراث ضرورة قومية ودينية في ان واحد بالنسبة لعربي مسلم مثلي .

وفي نظري ان توثيق صلة الادب المعاصر بالتراث ، لا يتنبأ ايدا مع ضرورة السماح لعجلة النمو والتطور والتجديد ان تأخذ مجراها الطبيعي في ادبنا المعاصر ، ومع ضرورة الاستفادة من جميع الحركات والاتجاهات الادبية الحديثة في جميع انحاء العالم اثراد لتجاربنا الادبية وتلقيها لبداعاتنا الفكرية والادبية ، لانه لا غنى عن كل ذلك لاي امة تنشأ التفتح والتقدم . ولكن الموقف المحافظ الذي اتخذناه لانفسنا عن ايمان وقناعة يحصر دائما على ان تكون تجديداتنا واستفاداتنا واقباساتنا الادبية في اطار قيمنا العربية والاسلامية الاصيلية وفي اطار خصائصنا اللغوية والادبية والثقافية التي تجعل

الفننا وادبنا وثقافتنا العربية شخصيتها العربية اتميزة بين لغات وآداب وثقافات الامم المختلفة ، مع تسليمنا بان هناك قدرا كبيرا من الخصائص الادبية مشتركة بين جميع الامم لطبيعتها الفنية والانسانية العامة .

والقاط الاساسية التي سأتناولها بالتوضيح والمناقشة اوجزة في اطار ذلك الموضوع التي اخترته تكلمتي هذه ، هي النقاط الست التالية :

- ١ - المقصود بالادب المعاصر .
- ٢ - ملامح المعاصرة او التحديث في الادب العالمي ونقد هذه الملامح .
- ٣ - المقصود بالتراث .
- ٤ - مدى اتصال الادب العربي المعاصر بالتراث والاسباب التي من اجلها يتخفف بعض المعاصرين في علاقتهم بالتراث .
- ٥ - وجه الضرورة في توثيق الصلة بين الادب العربي المعاصر والتراث .
- ٦ - سبلنا الى توثيق صلة ادبنا المعاصر بتراثنا .

١ - المقصود بالادب المعاصر :

فبالنسبة للنقطة الاولى وهي المتعلقة بمفهوم الادب المعاصر ، فانه قد يبدو لأول وهلة ان المقصود « بالادب المعاصر » هو ذلك الادب الذي يعكس قيم وخصائص العصر الذي فيل فيه . وحسب هذا المفهوم العام البسيط للادب المعاصر ، فان المعاصرة تصبح امرا نسبيا ، لا ترتبط بزمن او عصر معين ، لان كل عمل ادبي يعكس قيم وخصائص عصره هو ادب معاصر ، سواء فيل في العصر القديم او في العصر الحديث ، المهم في استحقاق العمل الادبي لهذا الاسم ان يعكس قيم وخصائص عصره .

والعموم والنسبية في مفهوم « ادب المعاصر » بهذا المعنى امران واضحان . ولا اعتقد ان مؤرخي الادب العربي ونقادهم الحديثين عندما يتحدثون عن « ادب المعاصر » في الوقت الحاضر يقصدون به هذا المعنى ، على الاقل بالنسبة للقبائبة منهم . وانما الذي يقصدونه من هذا المصطلح هو الادب الذي قيل في العصر الحديث ، سواء احتذى فيه اصحابه نهج الادب العربي القديم ، او احتذى فيه الاتجاهات الغربية الحديثة من رومانسية ورمزية وسريالية ووجودية

واخلاقية وواقعية ومثالية ومادية وما الى ذلك ، او كانوا فيه وسطا بين هذه وذاك .

حسب هذا التحديد الاخير لمصطلح « الادب المعاصر » كل عمل ادبي قيل في مرحلة انعصر الحديث هو ادب معاصر ، سواء اكان نغما او نثرا ، وبالنسبة للشعر سواء اكان موزونا مغنى يتبع تقاليد الشعر العربي القديم او كان حرا او كان مرسلا .

ومرحلة الادب المعاصر نفسها يمكن ان تكون مجالا لتلاخلاف . فهل هي الفترة التي تبعت بداية المنصف الثاني لتقرن التاسع عشر والتي بدأت فيها تتضح معالم انعصر الحديث وتظهر مخبرعانه فسي بعض البلدان العربية ، و هي الفترة التي اعقبت بداية القرن العشرين والتي عمت فيها معالم العصر الحديث رقعة اوسع من ارض العربي او هي فترة انحراب انعالية :لاولى وما بعدها وما صاحب وعقب ذلك من احوال وويلات واهتزازات في القيم التي كانت لها تاثيراتها وانعكاساتها في العمل الادبي . واتجاهاته في العلم العربي ، ثم لم تلبث ان تسربت اتي بعض الادباء العرب انذبن نتفخوا بالثقافة الغربية في المهجر وفي الوطن العربي نفسه .

وقد قسم بعض الباحثين العرب المحدثين المراحل التي مر بها الشعر العربي المعاصر بالذات من سنة ١٨٧٥ م وحتى ١٩٤٠ م الى ثلاث مراحل اساسية هي :

الاولى : مرحلة التقليد والبعث التي بدأ فيها الشعر العربي يتحرر من قيود مرحلة التخلف والركود التي مر بها خلال لترة طويلة تزيد عن اربعة قرون وبدأ يأخذ طريفا جديدا الى البعث بالعودة الى شعر الجاهلي والعباسي وما فيهما من جزالة ورسالة . ومن سادة هذه الحركة محمود سامي البارودي واسماعيل صبري ، والزاوي ، واحمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، واحمد محرم ، وعزيز ابظة ، ورفيق الهدوي ، وغيرهم . وقد عرفت المدرسة التي تنتمي الى هذه المراحل بجزالة العبارة ، والتعبير عن مشاعر النفس ازاء العواطف انشائية وازاء الاحداث القومية ، وانحرر عن المحسنات البديعية المتكلفة والالفاظ الموصوفة ومن المذات الرديئة . الخ .

الثانية : مرحلة التجديد وتحرير الشعر العربي - كما يقول اصحاب المدارس التي تنتمي الى هذه المرحلة - من قيوده والدعوة الى وحدة القصيدة والاهتمام بالمشاعر الذاتية ، وتطعيم الشعر العربي بمذاهب الشعر الغربي . ومن حملة نواء هذه المرحلة النبي امتدت من ١٩٠٧ م حتى ١٩٣٢ م تقريبا خليل مطران ، ويشارة الخوري وعبدالرحمن شكري ، وايليا أبو ماضي ، وميخائيل نعيمة ، وعباس محمود العقاد ، و ابراهيم عبدالقادر المازني ، وزكي أبو شادي ، وزكي مبارك .. وغيرهم .

الثالثة : مرحلة تطور تيار الشعر الوجداني والقومي التي بدأت تتضح معالمها بعد ١٩٣٠ م والتي قاد لواها جماعة ومجلة ابولو التي ضمت شعراء من الوطن العربي كله وان كان مقرها القاهرة ، ومدرسة المهجر الجنوبي ، ذات الطابع القومي . ومن اعلام هذه المرحلة او المدرسة الياس حبيب فرحات ، و ابراهيم ناجي ، وعلي محمود طه ، وابو انقاسم الشابي ، والتيجانسي يوسف بشير ، وغيرهم .. (١) .

ولا يزال هناك اتجاه او قول ثالث في تفسير مفهوم « الادب المعاصر » يأخذ في حسبانته المقياس الزمني ومقياس الخصائص معا ، وينهب الى ان الادب المعاصر « او الادب الحديث هو ذلك الادب الذي قيل في العصر الحديث وكان في الوقت نفسه يعكس روح العصر الحديث وخصائصه واتجاهاته ومذاهبه ونزعاته ويصف مخترعته .

وايا كان مفهوم الادب المعاصر او الادب الحديث ، فان للمعاصرة او الحدائة في هذا الادب مقوماتها او عناصرها او ملامحها ومركزاتها التي اطل نقاد الادب العربي الحديث على اختلاف

(١) انور الجندي ، الشعر العربي المعاصر ، تطوره واعلامه .

مشاربهم ونزعاتهم الادبية في ذكرها وشرحها . وبالرغم من ان هناك عناصر او ملامح مشتركة للادب المعاصر او الحديث تدى جميع نقاد الادب المحدثين ، فان هناك اختلافا بينا بينهم في هذه العناصر او الملامح ، وذلك بسبب اختلاف نزعاتهم ومذاهبهم الادبية او بخلاف المدارس الادبية التي ينتمون اليها . فملاح المعاصرة عند اصحاب مدرسة التقليد والبعث غيرها عند اصحاب مدرسة التجديد او عند اصحاب مدرسة الشعر الوجداني والقومي . كذلك المعاصرة عند ذوي النزعة ارومانسية قد تختلف قليلا او كثيرا عنها عند اصحاب النزعة السريالية او الوجودية او الواعية الندية او الاشتراكية . فاذا اخذنا جماعة الديوان (شكري والعقاد والمازني) مثلا ، فنسنا نجدها قد حددت للشعر الحديث مبادئ يجب ان يسير عليها ، لخصها بعض الباحثين المحدثين في المبادئ التسعة التالية :

- ١ - التعبير عن الذات البشرية وعواطفها .
- ب - الدعوة الى وحدة القصيدة .
- ج - التحرر من نظام القافية الواحدة ، وكتابة القصيدة ذات القافية المزدوجة او المتقابلة او المطلقة القافية .
- د - انتجاوب مع الطبيعة واستكناه ما وراء مظاهرها .
- هـ - البعد عن شعر المناسبات العارضة .
- و - الابتعاد عن الزخرفة اللفظية المتكلفة .
- ز - تحري الصدق المطلق في التعبير .
- ح - الشعر ميزة انسانية لا ميزة لسانية ، والقصيدة الجيدة هي التي لا تفقدها لترجمة شيئا من ملازماتها الفنية .
- ط - الدعوة الى تعميق ثقافة الشاعر والاطلاع على آداب الامم المختلفة (١) .

وهكذا لو اخذنا مدرسة او جماعة اخرى غير جماعة الديوان لوجدنا بعض الاختلاف القليل او الكثير عنها في تحديد مقومات وملاح الحدائة او المعاصرة في الادب الحديث .

٢ - ملاح الحدائة في الادب العالمي ونقدها :

وكثير من عناصر او ملاح الحدائة او المعاصرة التي يحاول بعض النقاد والكتاب العرب ان يفرضوها على ادبنا العربي المعاصر ويعتبروها القاييس المعتمدة للحدائة والمعاصرة هي عناصر وملاح غريبة مائة في المائة قال بها وروج لها ادباء الغرب ونقاده على اختلاف نزعاتهم ومدارسهم لادبية ، وقد ظهرت كتابات عربية عديدة تحاول تحديد ملاح مفهوم الحدائة في الادب العالمي ، لعل احدث ما قرأت منها هو ما كتبه الدكتور حسام الخطيب في مجلة الوعي العربي . فقد ذكر الدكتور الخطيب من اهم هذه الملاح ستة ملاح اساسية نذكرها فيما يلي :

- ١ - خاصية الصدق :
- ان اولى هذه الخاصيات والملاح الاساسية لمفهوم الحدائة او المعاصرة في الادب العالمي هي خاصية الصدق . ومما تعنيه هذه الخاصية في مفهوم المحدثين ان يكون الاديب صادقا في نقل تجربته ومشاعره ، وفي تصوير ما يرتبط بهذه المشاعر وتلك التجربة من مآسي وآلام ، وفي التعبير عن حياته وبيئته . وهذه الخاصية تعني ان الاديب الحديث لا يكتفي بالخيال وحده ولا يسير وفق القولة التي تقول « ان تعذب الشعر اكذب » والصدق عند هذا الاديب مصحوب عادة بان دفاع شديد لا يحده حد نحو الكشف الحقيقي عن اعماق الانسان واستبصاراته ، وباعتداد شديد بالحرية الذاتية والجرأة التعبيرية .

(١) د . كمال نشات : ابو شادي وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث . القاهرة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ ، ص ٢٦٦ - ٢٧٢ .

ب - خاصية الرفض :

والخاصية الأساسية الثانية لمفهوم الحدائنة في الأدب العالمي هي خاصية الرفض التي تتجلى في أدب كثير من الأدباء المحدثين ، خاصة ذوي النزعة الوجودية المتطرفة ، فتجد الواحد منهم يقف موقف الرفض لكل ما هو قائم اجتماعيا وسياسيا ، والمستخف بالقيم والمواضع الاجتماعية ، والنافر من حضارة العصر الحديث . وقد بلغ الرفض والأشمئزاز ببعضهم من صورة المجتمع الحديث درجة جعلته يبحث عن اجناس وافراد لم تولتهم المدنية الحديثة لكي يعيش معهم ويلوذ عندهم بالفرار .

وقد بالغ بعضهم في رفضه لدرجة الاستخفاف بالذات والخلقية والتهرب من المسؤوليات . وفي إطار هذه الخاصية رفضوا ايضا التقيد بالقواعد الفنية الموروثة . فالشعر عندهم - مثلا - لا يستلزم الوزن ولا القافية ، وربما رأى بعضهم في الوزن والقافية جنائية على موضوع الشعر ونوعا من التكلف .

ج - خاصية التركيز على وجدان الانسان وعالمه الداخلي :

والخاصية الأساسية الثالثة لمفهوم الحدائنة والمعاصرة في الأدب العالمي تتمثل في الانكفاء الواضح في اتجاه العالم الداخلي للانسان والاهتمام بالكشف عن اسرار النفس وخباياها التي لا يزال كثير منها مجهولا ، ولحمويات اللاشعور أو العقل الباطني بالذات ، وتصوير المحتوى الداخلي للنفس الذي هو غير متشكل وغير منظم وغير محدود وغير مفهوم بالنسبة للآخرين . وأكثر ما تتجلى هذه الخاصية في الحركة السيريلية التي تأثرت في نشأتها وتطورها بكثير من العوامل ، لعل من أهمها بالنسبة لهذه الخاصية بالذات ، حركة علم النفس التحليلي التي قاد لؤاها فرويد ومن أتى بعده من علماء التحليل النفسي . كما تأثرت بكتابات كثير من الكتاب الذين تعمقوا في دراسة النفس البشرية ، وذلك من امثال : «الكسيس كاريل» وغيره ، فهما يقول «الكسيس كاريل» في كتابه : «الانسان ذلك الجهول» :

« لقد تقدم الانسان في عالم الماديات وتعرف على بعض تركيب المادة ، وبذلك استطاع السيادة على غير قليل من الاشياء ، فيما عدا انفسنا ، انه الانسان الذي لا يزال مجهولا وان معرفتنا بانفسنا ما زالت بدائية وجزئية . » (١) .

د - الشعور باشكالية المصير الانساني :

والخاصية الأساسية الرابعة لمفهوم الحدائنة في الأدب العالمي يمكن ان تتمثل في الشعور الحاد باشكالية المصير الانساني وبالعجز عن تفسير القضايا الكبرى المتعلقة بالمصير الانساني وبالتوتر والبلبلة والشك والفضوض في كل ما يتعلق بهذا المصير . وقد ظهر هذا التوتر والقلق والشك والفضوض وعدم الاطمئنان واضحا في انتاج الادباء الذين يمثلون هذا الاتجاه في الأدب الحديث من الوجوديين المحدثين من امثال «جان بول سارتر» وغيره .

هـ - الشعور بالافتراب الروحي :

والخاصية الخامسة لمفهوم الحدائنة في الأدب العالمي تتمثل في الشعور بالافتراب الروحي وبالجمود وعدم انسجام الاديب مع طبيعة الحياة القائمة في عصره الحديث ، وفي شعور هذا الاديب بالفراغ الروحي والانفصام عن الحياة والعرضية والتجيرة الاليمة التي تدفعه الى السراب احيانا والى السلبية احيانا اخرى ، وفي نظرتيه الى الحياة نظرة متشائمة ترى ان الشر هو الاصل في الحياة وان الانسان للانسان ذئب ضار وان وظيفة الادب هو الكشف عن هذا الشر ، الى غير ذلك من المظاهر والاعراض المبررة عن خاصية الافتراب الروحي لدى الاديب الحديث .

(١) الكسيس كاريل ، الانسان ذلك الجهول (تعريب شفيق اسعد

فريد ، بيروت - مكتبة المعارف .

و - النسبية والتحرر من القواعد :

والخاصية السادسة لمفهوم الحدائنة في الأدب العالمي تتمثل في شعور الادباء المحدثين المتأثرين بهذا الاتجاه بان كل شيء نسبي ومتغير ، وما على الاديب الا ان يستعمل طريقته الادبية الخاصة به ولقته الخاصة لينقل الى الناس رؤيته الخاصة للعالم ، وفني شعورهم بان التجربة الادبية هي فردية ونسبية . فهم لا يعترفون بسلطة ادبية لتقدمهم حسب مقاييس معينة ، وينظرون الى الشعر بالذات على انه الكلام الصافي الذي لا يقيد وزنا ولا قافية ، ويعتبرون ان المهم دائما في العمل الادبي هو طبيعة مادة المضمون وعمق الكشف الذي تقدمه وليس الرداء الخارجي لهذا العمل .

ومن أبرز الظواهر التي تمخضت عن القول بنسبية القيسم والمعايير الفنية والادبية هي ظاهرة الشعر الحر ، وظاهرة الرواية الجديدة . واذا كان من أبرز مميزات الشعر الحر من حيث الشكل الخارجي هو عدم التقيد بالوزن والقافية ، فانه من أبرز مميزات الرواية الجديدة التي بدأت تظهر بوضوح في بداية الستينات من هذا القرن هو : التخلي عن حيل السرد ومواصفاته ، وعن الحدائنة والشخصية ، وعن المقدمة والنهاية .

وهم يريدون بعد ذلك كله انه ليس للفن او الادب غاية دنيوية ، ولا يجوز في نظرهم ان يصبح الاديب داعية المهذب ما ، او يشمل ادبه على مفزى اخلاقي او اجتماعي او مرمي سياسي ، وبلا كان مصلحا او مهذبا او واعظا او سياسيا ، وشتان بين الاديب وبين هؤلاء عندهم ، وهم بهذا يناصرون نظرية « الفن للفن » التي ترى في الفن والادب نوعان من الاشراقات التي تصفي الذوق وتصفق السروح وتنمي حاسة ادراك الجمال ، ونوعا من السبعات في آفاق المعاني والخيال المشتبه ومن اللامعات التي ترقى بالنفس الى اعلى مدارك النور .

هذه هي اهم خواص او ملامح وعناصر مفهوم الحدائنة في الأدب العالمي ، كما استخلصها الدارسون لهذا الأدب العالمي ، والغربي منه بالذات ، وهي خصائص وملامح مترابطة ومتداخلة ولعلها جميعا عند التامل ترجع الى الخاصية الاولى وهي خاصية الصدق ، حيث ان الصدق هو الذي يجعل الاديب يرفض ما لا يؤمن به ، وهو الذي يجعله يتجاوز الظواهر السلوكية والاحداث الخارجية الى اعماق النفس والضمير ، وهو الذي يؤدي به الى التشكك في اي تفسير للمصير الانساني لا يستند الى دليل قطعي ، وهو الذي يتسبب ايضا في جانب كبير من قلق الاديب وشعوره بالقرية والانقطاع العام عن الكون ، وهو الذي يقود الاديب الى تجاوز القواعد والمواصفات الشكلية للعمل الادبي في سبيل ضمان تعبير اكثر دينامية ومرونة واكثر دقسة وتجاوبا لما يختلج في نفسه ويدور في وجدانه (١) .

تقد وتعليق على هذه الملامح والخصائص :

وفي نهاية عرضنا لهذه الملامح والخصائص لمفهوم الحدائنة في الأدب العالمي نرى التزاما علينا الا نجعلها تمر دون ان نتقدها ونعلق عليها في اطار نظرتنا المحافظة او الوسطية وفي اطار ما نرجوه لادبنا العربي الحديث ونهضتنا الادبية العربية الحديثة .

وفي تصورنا لهذه الملامح انها وان اتسم بها الادب الغربي الحديث الذي ينتمي اصحابه لبعض المدارس الادبية المتطرفة في الذاتية والفردية مثل الرومانسية والوجودية والدادية وغيرها . فانها لم يتسم بها جميع الاعمال الادبية ، حتى في العالم الغربي نفسه . وان اتسم بها الادب العالمي في مجموعه فانه ليس بشرط ان يتسم بها او

(١) د . حسام الخطيب « ملامح مفهوم الحدائنة في الأدب العالمي »

مجلة الوعي العربي . تصدر عن مجلس شؤون الثقافة والتعليم باتحاد الجمهوريات العربية . السنة الاولى ، العدد الاول ، يونيو ١٩٧٦ ص ٧٤ - ٨٦ .

يأخذها بشكلها السريالي أو الوجودي الذي يعرضها عليه بعض كتاب الأدب المحدثين ، وكأنها مسلمت وسمت عامة تلابد العاني الحديث في جميع مذاهبه ونزعاته .

فانه بكل تأكيد هناك ادباء محدثون في العالم العربي نفسه لا يعتبرون هذه الملامح ملامح عامة يتحتم عليهم ان يتسكوا او يتصفوا بها ليوسم ادبهم بميسم الحدائنة ، وان اتسم ادبهم ببعضها او كلها فانه ليس بشرط ان يأخذوا بها في مفهومها السريالي او الوجودي ، لان كثيرا منهم لا ينتهي الى الحركة السريالية او الوجودية او غيرها من الحركات والاتجاهات الادبية الفردية المنظرية . بل ان كثيرا منهم ينتقد هذه الحركات ، ويرى فيها من السلبية والفردية المنظرية والرمزية والخيالية والتشاؤم والتحلل من القيم الحتمية ومن الالتزامات الاجتماعية ما يتنافى مع رسالة الاديب في مجتمعه وامته وبالنسبة للانسانية عامة .

ولهذا ، فانه من واجب ادبائنا العرب ان يأخذوا هذه الملامح بحذر ، وان ينظروا اليها على انها ليست ملامح عامة تشمل جميع الاعمال والحركات الادبية المعاصرة حتى في اعالم اقربى نفسه . وحتى ان اخذوا بعضها فانه من واجهم ان يعطوها التفسير الذي يتناسب مع عقيدتهم الدينية وقيمهم الخلقية ومع الخصائص العامة لتراثهم العربي وثقافتهم العربية الاصيلية ، ومع ما تقتضيه ظروف مجتمعهم وامتهم من عمل ادبي جاد محض وصادق ومن التزام صادق نابع من الداخل نحو قضايا مجتمعهم وامتهم ومن مشاركة ايجابية فعالة في حياة مجتمعهم وامتهم .

وانه لمن الاؤسف حقا ان نجد ان كثيرا ممن كتبوا عن ملامح الحدائنة والاتجاهات الادبية احدثت في وضمنا العربي لم يتفقدوا بهذه الاعيانات التي ذكرناها وراحوا يبنفون في دعوتهم الى هذه الملامح والاتجاهات ويصرونها كأنها ملامح واتجاهات عامة في العالم يجب على ادبائنا ان يأخذ بها دون قيد او شرط .

ومن واجب ادبائنا ونقادنا العرب ان يصرونا في موضوعية وبيروح عملية بحقيقة الملامح والاتجاهات الادبية الغربية ويعطوننا التفسير المقبول لها والقدر الذي يمكن ان نأخذ منها دون ان يلحق الضرر بخصائصنا الثقافية والادبية الاصيلية .

وكمساهمة متواضعة يمكن ان أقدم التفسير الذي أومن به او الذي اقبله على الاقل لتلك الملامح والاتجاهات فيما يلي :

(أ) فبالنسبة لخاصية او عنصر « الصدق » فانه لا يوجد عربي واحد يعتد برأيه يمكن ان ينكر قيمة هذا العنصر وضرورة التمسك به في كل ما نتقده وبقوله ونعمته سواء في مجال العقيدة والدين او في مجال الحياة العامة او في مجال العدل الادبي . فتصدق فضيلة وقيمة اساسية من فضائلنا وقيمنا الدينية والخلقية ، ومحمدة من المعامد الفنية والادبية وتقليد محمود يجب الاخذ به في جميع الاداب وفي جميع العصور . واذا كان هذا العنصر او الشرط لم يراع في بعض المناسبات وقصائد المديح والهجاء والثناء والفخر والوصف والشعر السياسي فانه لا يستطيع اي انسان ان يدعي ان الشعر العربي القديم كله يتقصه عنصر الصدق حتى في شعور المناسبات نفسه ، لان كثيرا مما قيل في هذا النوع من الشعر كان صادقا يمر عما يؤمن به قائله . وفي شعرنا العربي القديم امثلة نادرة في صدق التعبير ، خاصة في مجال الفزل العنري والمدايح النبوية ووصف الطبيعة .

ومن ثم فانه من واجب ادبائنا العربي ان يكون صادقا مع ربه ومع نفسه ومع مجتمعه ومع امته ومع فنه وادبه ، فيما يقوله ويعبر عنه . وبطبيعة الحال ان هذا الصدق يجب ان يكون في حدود الادب واللياقة والحشمة والوقار .

(ب) وبالنسبة لعنصر الترفض ، فانه ليس هناك من ينكر على ادبائنا العرب ان يتسكوا به في الحدود المقولة والمقبولة . فالفرض امر محمود اذا توجه به الاديب نحو اعمال الظلم والفساد من اي نوع

ونمو بالنظم ابغاسدة والتقاليد التي لا سند لها من الدين ولا من القيم انعرية الاصيلية ونحو العواطف الغاذبة واسانيب المسق والنفاق والرياء والخداع واذا ما ارتبط بالشجاعة والصدق والتزم بمبادئ الدين والاخلاق ، واذا ما اتخذ شكلا ايجابيا بناء يربط الثورة بالتخطيط للتغيير والهدم بالبناء واقتراح البديل .

فالفرض بهذا الشرط ليس امرا مقبولا فقط ، بل هو امر مطلوب لادبنا العربي المعاصر . واما الفرض الهدام الذي نشاهد اثاره السلبية وجنائه على المقدسات واتيقيم الدينية والخلقية والحضارية في العالم العربي ، وخاصة بين جيل الشباب ، فائنا نعيذ ادبائنا منه . ولا نتقده ان فيه خبيرا او نفعا ادبيا او اجتماعيا او سياسيا لامتنا العربية فظاهرة الترفض والتحلل من اي التزام بيسن الشباب الغربي اصبحت من اكبر المشاكل التي تعاني منها المجتمعات الغربية . ومما يؤسف له ان عدوى هذا ارض بدأت تتسرب الى مجتمعاتنا العربية ، ويساعد عليها الفساد السياسي والظلم الاجتماعي والتقليد الاعمى . .

(ج) - وبالنسبة لعنصر الانكفاء الواضح في اتجاه العالم الداخلي للانسان فانه عنصر اساسي ومحمود لتلايد العربي ، اذا ما فهم على انه محاولة لمعرفة النفس واكتشف عن مكنونها واسرارها ودواعيها اللاشعورية وعلى انه محاولة لحاسبة النفس وتذكيرها ونوع من الحوار الداخلي والعمق في التحليل والتفكير . وواجب الاديب ليس فقط ان يتعمق في فهم مكنونات نفسه هو ويعبر عنها بصدق ، بل من واجبه ايضا ان يتعمق في دراسة ودهم اشاعر الانسانية لدى غيره ، فنحن تعلم ان جودة القصة والرواية كثيرا ما تقاس بقدر ما يتوفر فيها من تحليل نفسي وحوار داخلي عميق ومحاولة للكشف عما يختلج في نفسيات شخصياتها .

اما اذا اخذ هذا العنصر بالمفهوم والصورة الموجودين في الادب السريالي العربي وما يترتب عليهما من انطواء على الذات ، واطلاق لعنان الحلم والخيال ، ودعوة ابي العودة الى الطفولة ، واهمال للتصرفات الخارجية للانسان ، وغير ذلك ، فانه غير مقبول في ادبنا العربي . ولا اعتقد ان هناك داعيا يدعو اليه الا التقليد الاعمى والتعقيد النفسي والشعور بالتقص .

(د) وبالنسبة لخاصية او عنصر الشعور الحاد باشكالية المصير الانساني وبالعجز عن تفسير انقضايا الكبرى المتصنة بمصير الانسان ، فانه هو الاخر لا يمكن ان يقبل على اخلافه بالنسبة للاديب العربي المعاصر قلبه بالايمان . فهو يؤمن بان للانسان خالفا عظيما اوجده من عدم ليعبده ويعمر هذا الكون بالعدل والاحسان والعمل الصالح ويعصون الله وتقديره وتوجيهه ، ثم الى انه مرجع الانسان فيجازيه عن كل ما فعل من خير او شر وقد وضح القرآن الكريم والكتب السماوية عامة مسألة المصير الانساني بما لا مزيد عليه من التوضيح ، حتى انها لم تعد مشكلة يختار العقل امامها بالنسبة للمؤمن حقا بوجود الله وبخلقه للانسان والكون كله وتسييره لهذا الكون حسب مشيئته وسابق علمه . وقد تولى علماء الشريعة والكلام التدايل على جميع العقائد المتعلقة بمصير الانسان بادلة عقلية يقلها العقل السليم .

والفروض في الاديب العربي القوي في ايمانه وعقيدته الا يقع في حبال الشك والحيرة والتردد في تحديد موقفه من المشكلات والمسائل المتعلقة بالمصير الانساني والامور الفيسية ، وذلك كما وقع فيها زميله الملحد في العالم الغربي . فالاديب العربي محمي بايمانه وقوة عقيدته من الوقوع في برائن الشك الديني وفي مسائل المصير الانساني بالذات . وقلة نادرة جدا من ادبائنا القدماء تعرضوا لهذا المرض ، نذكر منهم على سبيل المثال ابا العلاء المعري الذي كانت له تأملاته الحزينة في الكون والحياة وكانت له آراؤه المظلمة في المجتمع والناس .

وهذا لا ينافي ان الاديب العربي كغيره من الادياء والفنانين قد يتعرض في الفترة التي تسبق انتاجه الادبي او الفني الى حالة من القلق والتوتر والمعاناة الداخلية والشعور بوجود عيب في نفسه يريد ان يتخفف منه ، ولكن هذا القلق والتوتر والمعاناة الداخلية لا تصل لدى المؤمن الى درجة الشعور باشكالية المصير الانساني .

(هـ) وبالنسبة لخاصية القربة الروحية وعدم الانسجام مع حياة العصر فانها هي الاخرى لا يمكن ان تقبل على اطلاقها لادبنا العربي الذي نريده ان يكون عامر القلب بالايمان والحب لانياء مجتمعه وامته ، راضي النفس ، مطمئن البال ، ناظرا الى الحب نظرة امل وتفائل ، شاعرا بقيمته وفاعليته وبالذور الذي يمكن ان يقوم به في خدمة مجتمعه وبلاتمانه ووثوق صلته بمجتمعه ، ومشاركيا ايجابيا في حياة مجتمعه وامته ، ولملتزما بقضايا مجتمعه وامته . تريده شخصا لا يخلق في مثالية مفرطة، ولا يقف عند التفني بالامه وافراحه الذاتية، ولا يكتفي بالسخط وعدم الرضى من عيوب مجتمعه وعمره ولا يقف مكتوف الايدي امام الظواهر الجديدة غير المرضية في مجتمعه ، بل يتجاوز ذلك الى الكشف عن اسباب هذه العيوب والظواهر غير المرضية ثم الى التوجه الى سبل التغلب عليها .

وليس منا من يرضى لادبنا العرب ان يقلدوا ادباء الغرب الذين اصيبوا بلوثة القربة الروحية وما يتبعها ويرتبط بها من فردية وانطوائية وسلبية وهروب فكري ووجداني ونظرة تشاؤمية وما الى ذلك من اعراض ولواحق القربة او الفجوة الروحية ، لان ذلك التقليد صار بهم ولجتمهم ومطل لهم عن القيام بدورهم الايجابي في حياة مجتمهم وامتهم .

ان هذه الخاصية تكاد تكون مفروضة في جملتها . ولعل الجانب الوحيد القبول منها الا يتورط الاديب في الفساد الذي يجري في مجتمعه ، وان يقف موقف الراصد لحرته والناقد لخطائه وعيوبه والمتصدي لوجه الفساد فيه .

(و) وبالنسبة لخاصية النسبية والتحرر من القواعد ، فانها هي الاخرى لا يمكن ان تقبل على اطلاقها وبالمعنى الذي فهمت به في الغرب ، لان الاخذ بها على اطلاقها امر صار بالدين والقيم والاخلاق والخصائص الادبية والفنية العربية الاصلية التي لا غنى عنها للممثل الادبي الجيد مضمونا وشكلا .

وبالرغم من تسليمنا بمبدأ النسبية في كثير من مظاهر الحياة ، خاصة في مجال العالم البشري واللوق الفني والادبي والتقاليد والاعراف الاجتماعية التي هي من صنع المجتمع ، فاننا نؤمن بان هناك قدرا كبيرا من الثوابت في مجال العقيدة وفي مجال القواعد الخفية العامة والقيم الادبية والفنية الاساسية . وبالرغم من تسليمنا بضرورة التخفف من التحسينات البدعية الزائدة عن الحد اللازم والحرنة في استعمال القوافي والبحور الشعرية التقليدية فان هناك قدرا ضروريا من الصنعة والاناقة والتقاليد الشكلية لا بد من محافظة الاديب عليه ليصح تسمية الشعر شعرا وتسمية القصة قصة ، وتسمية الرواية رواية وتسمية المأمة مقامة ، هكذا ولا يمكن ان يبرر جهل الاديب بهذا القدر الضروري او عجزه عن الوفاء به بحيله النسبية والتحرر من القواعد .

هذه هي خصائص الادب الحديث في مفهومه الغربي وهذه هي انتقاداتنا لها وتعليقاتنا عليها قد عرضناها بشكل موجز مبسط .

٣ - المقصود بانتراث

وبعد هذه اللمحة البسيطة التي القيناها على مفهوم الادب المعاصر وعلى ملامح وخصائص مفهوم الحدائة والمعاصرة في الاديب العالمي وعلى رأينا في هذه الملامح والخصائص ، فانه يجدر بنا ان ننتقل الى الحديث عن الشق الثاني من موضوع كلمتنا هذه ، وهو الشق المتعلق بمفهوم التراث ومدى اتصال ادبنا العربي المعاصر

بتراثنا العربي القديم ، والاسباب التي من اجلها بدأ يخفف بعض ادبائنا المعاصرين في علاقتهم بالتراث العربي القديم ، ومدى الفرد والخطأ في هذا التخفف ، ووجه الضرورة في توثيق الصلة بين ادبنا المعاصر وتراثنا القديم ، والطريق الانسب لتوثيق هذه الصلة والمبادئ والشروط التي ينبغي ان تتم في اطارها هذه الصلة .

فبالنسبة للنقطة الاولى من نقاط الشق الثاني من الموضوع وهي المتعلقة بمفهوم التراث ، فانه لا اشك ان الجميع يتفق على ان المقصود بالتراث في هذا المؤتمر الادبي هو التراث الفكري والادبي العربي الفصح الذي يستقي وجوده من الماضي العربي والاسلامي الذي يعيش على انوار حيا في ضمير المواطن العربي وذاكرته ويمثل الطهر والقداسة والقيم والمثل العليا التي آمن بها مجتمعا العربي والاسلامي في ابان براءته وبساطته واصلته وقوته وازدهاره . وهذا التراث يشمل فيما يشمل - بالاضافة الى هذه القيم والمثل العليا - الخصائص والصفات المميزة للامة العربية والثقافة العربية في اصولها السليمة ، وما في تاريخ الامة العربية من احداث ذات تاثيرات وعبر مستمرة مع الايام ومن مواقف انسانية خالدة وامجاد لا تزال تستحق التفني بها واستخلاص العبر والدروس منها ومن احكام تاريخية لا يتطرق الشك الى صحتها وسلامتها . كما يشمل - وهو الالهم - الفاظ اللغة العربية وجملها وتركيبها واساليبها وقواعدها النحوية والصرفية والبلاغية ، وتقاليد الادب العربي القديم وخصائصه في موضوعاته وغاياته واغراضه ومفرداته وتركيباته ومجازاته وتشبيهاته وكناياته واخيلته وصوره الفنية واساليبه وفي قوافيه واوزانه وفي غير ذلك من خصائصه ومقوماته ومكوناته .

وهذه الخصائص والصفات والمقومات والمميزات التي يمتاز بها الادب العربي في عصور ازدهاره والتي تستمد وجودها من الخصائص والصفات القومية العامة للامة العربية هي التي تجعل للادب العربي التحلي بها في جميع عصوره وازمانه طابعه المميز بين آداب الاسم الاخرى ، ولا يضر مع المحافظة على الاصول والخصائص والصفات والتقاليد العامة للادب العربي القديم ما يطرأ على الادب العربي في عصوره المختلفة من تطورات وتحسينات وتجديدات وابداعات تصعد به في سلم الكمال درجات ، ولكن الدرجة السفلى والدرجة العليا وما بينهما ستظل على الدوام درجات متوالية في سلم واحد (١) .

واذا كان المقصود الاساسي بآداب التراث هو ذلك الادب الذي يحافظ على الخصائص الادبية الاصلية والذي يمتد من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر العباسي تقريبا ، فان ذلك لا يعني ان الادب الجيد الذي اتى بعد ذلك خارجا عنه ، او ان هناك صراعا بين القديم الاصيل وبين الحديث الجيد الذي يحافظ على التقاليد الاصلية للقديم .

فالقديم والحديث اذا كانا يسيران في اتجاه واحد ويحافظان على نفس الخصائص الاساسية فانهما لا يعدوان ان يكونا مجرد تسمية زمنية ليس الا . ومن شأن الادب الجيد الذي تتوفر فيه الخصائص الادبية الاصلية ان يفرض نفسه وينال الاحترام مهما كان عصر قائله . فالباروني وحافظ وشوقي ومن جرى في مضمارهم ، على الرغم من انهم من المحدثين وكانت لهم تجديداتهم الكثيرة فانهم ساروا في نفس النهج القديم ورجعوا بالشعر الى اساليبه القديمة الرصينة ودباجته المشرقة والفاظه الجزلة المتينة وبنائه المحكم وموسيقياه الرائعة الحلوة الساحرة وتخففه من البدعيات المتكلفة والمبالغات المفرطة ومن غير ذلك من اوجه الضعف التي اصابت الشعر العربي طيلة اربعة قرون في عهد المماليك .

(١) د . عبدالوهاب عزام « اثر الثقافة العربية في الثقافة المصرية الحديثة » مجلة الثقافة المصرية ، السنة الخامسة ، العدد ٢٣٥ - ٢٩ يونيو - ١٩٤٢ - ص ١٥ - ٣٠ .

تخلف بعض المعاصرين في علاقتهم بالتراث :

ونحن اذا تصفحنا ادبنا المعاصر وحاولنا الحكم عليه من حيث صلته بالتراث بالمفهوم السابق الذي ذكرناه لهذا التراث ، فاننا نجد انه ينقسم الى قسمين رئيسيين : قسم يحافظ على تقاليد التراث وخصائصه ويجعل تجديده سواه في الموضوع او في الشكل في اطار هذه التقاليد والخصائص الموروثة ، وقسم آخر يسيير في تيار الثورة على التراث والتقليد المتعمد لاتجاهات واساليب الادب العربي والاخذ بمفهوم الحداثة وبخصائصها وملامحها التي اشرنا اليها وناقشنا اهمها في فقرة سابقة من هذه الكلمة ، وبين هذا القسم وذاك يمكن ان توجد اقسام اخرى تختلف في درجة قربها او بعدها من التراث .

وبالرغم من ان القسم التقليدي لا يزال قويا ولا يزال المقبول من القاطنة العظمى من افراد الشعب العربي خاصة جيل الكبار وذوي الثقافة العربية الاصيله لانه يخاطب عواطفهم وينفذ الى اذواقهم . ويعكس خصائص امتهم وثقافتهم العربية الاصيله فان القسم الحديث المقلد للاتجاهات الغربية في مفهوم الحداثة والمعاصرة بدأ يأخذ طريقه ويتخذ بعض الانصار له ، خاصة في بعض الاقطار العربية المهيمنة وبين بعض الشباب وبين المثقفين ثقافة غربية ، وبالنسبة للادباء العرب السائرين في هذا الاتجاه الجديد فسان صلتهم بالتراث الادبي العربي وما يحمله هذا التراث من صور واوزان وقواف وخصائص وتقاليد بدأت تضعف كثيرا وبدأت نجد منهم بين الحين والآخر من يتعامل على التراث ، وعلى الشعر العربي القديم واللغة العربية بالذات ويعتقهما بالتحجر والجمود والتكلف والوقوف حجر عثرة في سبيل التحرر والانطلاق في التعبير عما في نفس الاديب بعيدا عن التكلف والتزويق ، ويدعو في نهاية المطاف الى التحلل من تقاليد الادب القديم وخصائصه في الشكل والمضمون والى التحرر من قواعد اللغة العربية .

واذا ما حاولنا البحث عن الاسباب الحقيقية التي تكمن وراء هذا التحامل والعداء ضد التراث او على الاقل اتخاذ موقف فيسّر متحمس له ، فاننا نجد ان من اهم هذه الاسباب ما يلي :

(أ) جهل هؤلاء المجددين على الطريقة الغربية بآداب التراث ، وقلة محفوظهم منه ، وذلك على خلاف آداب السلف والمقلدين لهم الذين كان الواحد منهم لا ينصب نفسه شاعرا مثلا - حتى تصل محفوظاته من جيد الشعر الاف الابيات . وكان الواحد منهم لا يقف عند حفظ القدر الكبير من جيد الشعر ، بل يحاول فهمه وهضم ما فيه من مفردات وتركيبات واساليب وتشبيهات وكنائيات وصور فنية وخصائص ادبية ولغوية وبلاغية اخرى .

(ب) ضعفهم في اللغة وقلة زادهم من مفرداتها واساليبها وقواعد نحوها وصرفها واشتقاقها وفقها وبيانها ومعانيها وبديعها وعروضها . وهم بدلا من ان يعالجوا هذا الضعف بالدراسة وتكميل نقصهم فيها ، فانهم اخذوا يحملون على اللغة العربية ويتهمونها خطأ بالصعوبة والتكلف والتعقيد والجمود ، وبنائها ليست لغة حضارة ولا علم الى غير ذلك من الاتهامات .

وفاتهم ان العيب والضعف ليس في اللغة العربية نفسها ولكن في اصحابها الذين عزلوها . فلو اخذ اصحاب اللغة العربية بيدها وادخلوها الى مجال العلم وعالجوها وتناولوها ومارسوها بلغة العلم لاستطاعوا ان يصلوا الى لغة علمية قادرة على التعبير العلمي بمرور الزمن .

(ج) الجبلية والحيرة والقلق ، وعدم وضوح الرؤية ، وطفيلان القيم المادية والمصالح الاقتصادية ، وغزو الثقافة الغربية باتجاهاتها

ونزعاتها ومذاهبها الفكرية والفلسفية والاقتصادية واهتزاز القيم السوروة ، سواء آكالت ادبية او غيرها التي اصبح الاديب العربي يتعرض لها فتؤثر فيه وتجعله يفقد الثقة في نفسه وفي مجتمعه وفي تراثه ويقع فريسة في تيار الثقافة الغربية المعاصرة باتجاهاتها ونزعاتها المنحرفة . واكثر من يتعرضون لهذه العوامل المضعة للثقة بالنفس والتراث هم من ناقصي الثقافة الاسلامية العربية والمرتمين في احضان الثقافة الغربية بدون ضابط ولا وعي .

(د) الصعوبات والعيوب والمشاكل التي تكمن في اللغة العربية نفسها والتي لها جذورها التاريخية القديمة ، وذلك ان الذين درسوا اللغة العربية في بداية الامر درسوها كما لو كانت شيئا واقفا ، كما لو كانت وحدها في الميدان ، ووضعوا قواعدها في تاريخ محدد ، وانتهوا بالاستشهاد بموت ابراهيم بن هرمة سنة ١٥١ هـ ، واعتبروا كل ما جاء بعد ذلك مولدا لا يصح الاستشهاد به ولم ينظروا الى اللغة العربية على انها امتداد لنفسها وامتداد الى اخواتها الساميات في القديم . ولعلمهم لو نظروا في اللغات السامية الاخرى او نظروا في اللغة العربية نفسها في فترات اسبق لاستطاعوا ان يتوصلوا الى حل كثير من المشكلات الصوتية والنحوية والصرفية التي ترجع الى تاريخ قديم ، كما انهم غلبوا اللهجة ولم يعطوا عناية كافية لبغية اللهجات العربية ، ولجأوا الى القياس المنطقي ، مع انه ليس هناك علامة متبادلة تامة بين المنطق وبين اللغة ، حيث ان لكل لغة منطقها الخاص بها ، ولو كانت اللغات متمشية مع المنطق العام تماما لاستوت اللغات في كثير من المسائل . وهذا غير موجود كما نعلم . وكان من نتائج استخدامهم للقياس المنطقي في اللغة انهم لجأوا الى قضية الاستتار ، وقضية التاويل والحذف ، وما الى ذلك (١) .

(هـ) اغراق الشعر الجاهلي الذي يكون دكنا هاما في التراث في الشكلية والتشابه الكبير في التقاليد ، ان لم يكن وحدتها تماما . ومن التقاليد الشكلية التي كان يتمسك بها الشاعر الجاهلي والتي لم يعد هناك معنى للتمسك بها في العصر الحديث : البرود على المنزل ، والبياء على الاطلال ، والنزول بالحبيب ، ووصف الليل والخيل ، ووحدة البحر والقافية في القصيدة الواحدة ، واستقلال كل بيت وانفراد عمه قبله وعمه بعده ، الى غير ذلك .

وقد رأى الشاعر العربي الحديث المتحرر في مفهومه للحداثة في ذلك الاغراق في الشكلية وفي التقيد بوحدة البحر والقافية واستقلال كل بيت عن الاخر في القصيدة منافاة لروح العصر الحديث ولمسدا الصديق في التعبير الذي يفرض على الاديب الا يقول الفزل الا اذا كان محبا فعلا والا يمدح وهو يعلم ان الشخص الذي يمدحه لا يستحق المدح والا يرثي وهو لا يشعر بادنى ذرة من الحزن في نفسه ، وهكذا .

وفي تصور الشاعر العربي السائر في الاتجاه الغربي ان التقيد بوحدة البحر والقافية وبعدهم من التفصيلات يعول بينه وبين الانطلاق على سجيته ، وان استقلال كل بيت في القصيدة وانفراده وما يترتب على ذلك من تعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة اصبح لا ينسجم مع طبيعة القصيدة الحديثة التي ينظرها الشاعر كوحدة منظرية متماسكة ذات موضوع واحد وتجربة معاشة .

وكل ذلك جعل الشاعر العربي السائر في اتجاه التجديد يتخفف من علاقتهم بشعر التراث ، وربما يشتت في نقده والتحامل عليه .

(و) مبالغة بعض الشعراء المتأخرين في التزويق اللفظي والترصيع بالمحسنات البديعية التي تصل بالشعر الى درجة التكلف المفقوت الذي لا يقبله منطق الحديث الذي يرى في الشعر على انه موهبة

(١) ينظر نفس المرجع السابق ، نفس الصفحات .

على الادب الانسانية والثقافات الاخرى ، او من تطوير ادبسه
وامانسه .

ولتكون اكثر تخصيصا ووضوحا في بيان ضرورة اتصال الادب
الحديث بالقديم الاصيل السليم وبيان اهمية هذا الاتصال ، فاننا
نذكر بياجيز الاساتيد والمدعيات التالية :

(١) أن تراث الامة في أي ضرب من ضروب المعرفة والفن من أنفس
ما تملكه ومن خير ما تركه السلف من ثقافة وحضارة . أن هذا التراث
مصنر تري وينبوع دائق لا يمكن لأي متدارس ، سواء أنصف أم لم
ينصف ، تجاهله ، لانه أحد خصائص الامة الكبرى . واهتمام الامة
بتراثها يزداد ويشهد بمد أن تلتفت الى نفسها ، وتتمركز نظراتها،
وتنتفح آمالها ، وتزدهر مطامحها القومية (١) .

ولهذه الاهمية التي يحتلها اتراث من اتناحية القومية ، فانه من
واجب ادباء الامة في كل عصر أن يحافظوا على قرآته وحفظه وفهمه
وهضمه والتفاعل معه والاقتباس منه ومعارضته ومحاكاته ومباراته
لمحاولة بزه والتفوق عليه واعتباره نقطة البداية في تطوير وتجديد
ادبهم ، وذلك كما فعل شوقي وغيره من ادباءنا وشعرائنا المحدثين
الجيدين . فتقليد شوقي - مثلا - للاقدمين (تم يكن يعني - كما
يقول الدكتور شوقي ضيف) - التخلف ، وانما كان يعني التفوق .
فما يزال يحور في المعنى ويولد في الفكرة حتى يستخرج الدرر
اليتيمة . فتقليد شوقي ليس معناه العفن ، وانما معناه القدرة
على الخلق والابداع . فما يزال بالمعنى او الفكرة حتى يحولها الى
ملكه وحتى يضرب عليها ضابغة ، وما يزال يتخذ من صياغة الشعراء
صياغة جديدة له ، منهم ، وليست ملكهم ، وانما هي له ومن
صنعه . لا يجور على القوالب والاصول والاصحاح القديمة ، ومع
ذلك فهو صاحبها ، وهي ذات كيان حي .

وهذا هو التقليد الحي . فهو ليس تحجرا ولا جمودا ولا تعفنا،
وانما هو تغفل وتعمق في اتقاليذ الفنية الورثة ، حتى لا يضرب
الشاعر في متاهات انفس ، وحتى لا يصل طريق الشعراء التوايح
الذي سلكه امامه في لغه ، فيجري في نفس الدروب على هدي
سابقه ، ثم يحاول أن يتبدع امثال النادر ، بعد ان يكون قد
تعرف تماما كاملا على كل ما صاغه اسلافه ، اذ راه رؤية صحيحة،
في اعظم ما يكون من النور والضياء» (٢) .

(ب) ان قراءة الادب القديم السليم في اسلوبه وفي معناه في
غاية الاهمية للاديب المعاصر ، لترجة اننا لا نتصور ان شعرا
عربيا حديثا يمكن أن يبني صرحا في الشعر الاصيل ما لم يقرأ
قراءة ترو وفهم واستيعاب وتمثل واستلهم وتدوق ادب التترات
الاصيل وزود نفسه منه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، لان هذا الادب
الاصيل هو الصورة المثلى للعبودية الواحدة ، والصورة المثلى للنطق ،
والصورة المثلى للقراءة الجيدة . وما كان البارودي وشوقي
وحافظ ابراهيم وحمد رفيق المهدي وغيرهم من فحول شعرائنا
المحدثين ان يصلوا الى ما وصلوا اليه من جودة الشعر لولا قراءتهم
واستيعابهم لشعر الشعراء القدماء الجيدين من امثال ابي فراس
وابي العلاء المرعي وابي العنانية والعباس بن الاحنف والبهاء زهير،
والمنيني وابو تمام والبحري والمهلي وابن الرومي والشريف الرضي
وابن زيدون والبوصيري وغيرهم من شعراء التراث الذين يمثلون
الشعر العربي في ازهى عصوره وصوره .

والاديب المعاصر برجوعه الى ادب التراث واستيعابه يستطيع

(١) طلال سالم الحديثي ، مقدمة وستة شعراء . بغداد . مطبعة

دار البصرى ١٩٧٠ م ، ص ٢١ .

(٢) د . شوقي ضيف . شوقي شاعر العصر الحديث . القاهرة :

دار المعارف بمصر ١٩٥٣ ، ص ٨٠ - ٨١ .

وليس مجرد ضلعة وانه مضمون وفكرة قبل ان يكون شكلا . ويكاد
الادباء المحدثون يجمعون على استهجان ما امتلا به ادب المتأخرين من
الوان البديع المتكلفة التي لا غرض من ورائها غير الزينة والزخرف
وروعة السامعين وجذب انظارهم اليها وبها ، وغير اظهار بلاغمة
الشاعر وبراعته اللغوية . ويعتبر هؤلاء المحدثون ان خير الكلام ما خلا
من الصنعة المتكلفة والتلفت الفاظه وانتقت معانيه ، وكان قريب
المعنى ، بعيد الرمي بريئا من وصمة التكلف ومن عشوة اتعسف ، غنيا
عن مراجعة الفكرة .

ومن واجبنا ان ننبه الى ان هذا الانتقاد وان صدق بالنسبة لادب
بعض المتأخرين في عصر المماليك فانه لا يصدق بالنسبة لشعر
القدماء من جاهليين واسلاميين ونمويين وعباسيين الذين كتبت
الصنعة والتحسينات في شعرهم ناتي طبيعية غير متكلفة . ومن
واجب ادبائنا المحدثين ان يفرقوا بين الصنعة والتكلف . فالصنعة
لا بد منها في كل عمل فني يقترب من الكمال ، يزاولها اثنان فكون
من تمام جمال الفن . ولقد كان زهير يأخذ شعره بانصنعة اذ
كان يعاود حويلياته بالتفتيح والتثقيف . وتعاقب بعده شعراء تناولوا
اشعارهم بالصنعة والتحسين كالحطيمه وشار وغيرهما ، حتى كان
مسلم بن الوليد وابو تمام وابن ابي عمير فالتفتوا الى المحسنات اللغوية
والمعنوية وحسن موقعها من الكلام فاتخذوها نسي صناعتهم الشعرية
قصدا ، وكثيرا ما كانت تواتي اسلافهم عفوا ومن فيض الخاطر .

ولا ينبغي ان يغض التكلف المرذول من قدر البديع المحكم الصنع .
فما البديع الا مادة زينة كالذهب والازهار ، يختلف المزين بهسا
باختلاف الصنعة والتنسيق . وهنا يكمن الحد بين الصنعة والتكلف،
وكيف نحمل على التخلي عن الصنعة في الآثار الادبية ؟ ليس اختيار
الالفاظ واحكام النسيج وترتيب الافكار والمعاني صنعة ؟ ولو تخلينا
عنها لما استقام للشعر وزن ولا اطردت له قافية (١)

هذه بعض الاسباب التي من اجلها يتخلف الادباء المحدثون
التحررون في علاقتهم بالتراث وهذه بعض الانتقادات التي يوجهونها
الى هذا التراث . وفي انتقاداتهم لادب التراث بانذات من التعميمات
والمغالطات المقصودة وغير المقصودة ما لا يحصى ، ليس الخلط بين ادب
التراث في عصر ازدهاره وبين ادب عصر المماليك المتخلف ، والخلط
بين الصنعة الطبيعية المحمودة وبين الصنعة المتكلفة المعيبة الا
بعض هذه المغالطات .

٥ - وجه الضرورة في توثيق الصلة بين الادب العربي
المعاصر والتراث .

ولكن مهما كانت الاسباب التي من اجلها يتخلف بعض الادباء
المحدثين في علاقتهم بالتراث او يحاول التخلي عن هذا التراث كلية،
ومهما كانت الانتقادات التي يوجهها هذا البعض الى التراث ، فانه
لا غنى للادب العربي المعاصر - اذا اراد ان يحافظ على اصالتسه
وشخصيته العربية الاصيلية وعلى شخصية الامة التي ينتهي اليها - من
الناحية الثقافية والروحية بانذات - من ان يوثق صلته بالتراث
العربي القديم الاصيل والسليم . ان توثيق هذه الصلة ضرورة قومية
ودينية وثقافية وادبية في آن واحد . وليس في هذه الصلة او
العلاقة القوية المتينة ما يحسد من قدرة الاديب الاصيل الموهوب
والمتمكن من ادواته اللغوية والفنية على الخلق والابداع ، او من
قدرته على الانطلاق في التعبير ، او من قدرته على علاج اية قضية
من قضايا مجتمعه وامته وطرق كل جديد في عصره ، او من تفتح

(١) عباس حسان « نظرات في ادب المتأخرين » مجلة الثقافة

المصرية ، السنة الثامنة ، والعدد ٣٩٨ ، ١٣ افسطس ١٩٤٦ م ،

ص ١٦ - ١٨ .

المسرحية ، او غير ذلك من الاعمال الفنية . « ولكن ثبت ان هذا الكلام ضعيف ، لانه كُتبت قصص وكُتبت مسرحيات باللغة الفصحى ، وحتى في الشعر كما في مسرحيات شوقي وعزير اباطة ، كُتبت الشعر الراقي السليم ، وفهمت . فالقضية قضية التثقيف اللغوي العام في البيئة المعنية ، كيف نصل الى هذا التثقيف اللغوي ؟ هذه قضية المعلمين والمتعلمين جميعا .

وهناك لغة سهلة مبسطة مثل الخطب المنبرية التي رغم ثقلها احيانا لان الخطيب يأخذ طريقا معيناً في الالقاء واسلوباً معيناً في التمييز ، الا ان الناس يفهمونها . فهناك اساليب عربية سليمة فصيحة ، سهلة ، مبسطة ، يمكن ان يفهمها الرجل العادي ، ثم الرجل العادي يجب ان نرفعه لا ان نزل الى مستواه ، فنأخذ بيده ، نطيه جرة من كلام فصيح سهل في البداية ، ثم نرتفع بهذه اللغة الى ان نصل الى الفصحى المبسطة « (1) .

والتخلي عن العربية الفصحى إنما هو رجوع بالفكر العربي الى حالة السذاجة والجهل التي كانت عليها الامة في اوائل نشأتها . وهو دسّن لتراث الامة التليد وقطع لتاريخها الجيد (2) .

والدعوة الى تغيير الابجدية العربية لا تقل في خطورتها وضررها على التراث عن الدعوة الى استعمال اللغة العامية في كتابة الفن والادب . فتغيير الابجدية العربية فيه تغيير ضمنى للتراث العربي ، « لانه لو وضعنا ابجدية جديدة الآن ، لا بد ان ننظر في التراث ، فاما ان نعبد كتابته ، واما نعلم الناس نوعين من الابجدية يقرأون بواحدة أقدم ويقرؤون بالآخرى الحديث .. واعلم ان الابجدية العربية خير ابجدية على وجه الارض العربية .. هذه الابجدية العربية صالحة لان يكتب فيها القطري لهجته والمصري لهجته ، الخ . فيها من القومات ما حرمت منها الكثير جداً من الابجديات ، وما زالت الى حد كبير تمثل النطق بصورة واضحة جدا » (3) .

طرابلس (ج.ع.ل)
د . عمر التومي الشيباني



الاحتفاظ بقيم الماضي مجردة من المصالح ، ويربط الحاضر والمستقبل بالماضي ، وينمي موهبته الادبية وذوقه الادبي وملكته انتقديه . ولهذا كان من حكم الاوائل قولهم « اكتبوا احسن ما تسمعون ، واحفظوا احسن ما تكتبون ، وتحذروا باحسن ما تحفظون » .

ومما رآه الاستاذ احمد الزين احد رواد الحركة النقدية الادبية في هذا القرن الامران التاليان :

« الامر الاول : ان اندوق الادبي وملكة النقد الفني إنما يخلقان وينهوان في نفوس المتأديبين بكثرة ما يحفظون فيما تركوا ، ثم يدأبون على تطبيق ما لم يسمعوا على ما سمعوا وقياس ما لم يعموا على ما علموا . وهكذا حتى تصبح ملكاتهم قادرة على ابتكار ضروب في النقد لم يسبقوا اليها وطرق جديدة في تمييز الكلام لم يدهم عليها احد .

الامر الثاني : ان الفساد والضعف في الشعر والحديث ترجعان الى عدة اسباب افوها ان ناشئة اشعراء في هذا العصر لم يرجعوا في تعلم الشعر الى مصادره التي منها بعث وفيها شرب واكتهل . فلم يقرأوا من شعر الفحول المتقدمين الا قليلا ، ولو فعلوا لاسبهم ذلك الشعر تقويماً لاسنتهم وتحسيناً واضحا في اساليبهم وحياء قوية في عباراتهم وتعلموا من ذلك الشعر كيف يبرزون احساساتهم وعواطفهم واخيلتهم في صورة واضحة الدلانة بينة المعالم لا غموض فيها ولا التواء ، لكنهم رجعوا الى تعلم الشعر الى ما ينشر في الصحف كل حين من شعراء الضعفاء ، وضيبي ان الفرع اضعف من الاصل .. » (1)

(ج) ان توثيق الصلة بالتراث فيه اكبر دعم لثقة العربية الفصحى التي تعتبر اللغة العامة والمشاركة التي يفهمها انفس العرب جميعا على اختلاف اماكنهم وبيئاتهم ، واکبر عون على توحيد اللغة العربية والتقليل من الصيغ اللغوية المختلفة او من شتات اللهجات العربية الكثيرة والتقريب بين هذه اللهجات . فقد كان الادب على الدوام وسيلة من اهم الوسائل لتوحيد اللغة والتقليل من شتات اللهجات العربية وتقريب الهوية بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة . ودوره اليوم في هذا التوحيد اشد ضرورة واكثر خطورة ، وذلك في وقت اخذ فيه النحس بالقومية العربية يقوى ويشند . وبطبيعة الحال ان اللغة العربية هي ابرز مظهر من مظاهر القومية ، بل هي رمز القومية ومقومها الاساسي واثق رباط بين الناطقين بها وسيلتهم الوحيدة في التفاهم على اختلاف اقطارهم وكياناتهم المصطنعة .

واللغة التي لها هذه الاهمية هي اللغة العربية الفصحى لانه هي اللغة المشتركة التي يفهمها الجميع . ومن واجب فنانينا وادبائنا العرب ان يكتبوا فنهم وادبهم باللغة العربية الفصحى ولو البسيطة السهلة ، لان هذا ليس في صالح وحدتنا اللغوية وحسب . بل هو ايضا في صالح وحدتنا الفكرية والسياسية والنفسية ، لان اللغة ليست مجرد الفاظ مرصوفة وليست مجرد وسيلة اتصال ، بل هي علوم واداب وعواطف مصوغة في الفاظ . وهي قبل هذا وبعدة لغة الدين الاسلامي والوعاء لشريعته الفراء .

وإذا كان لغة العربية الفصحى ما ذكرنا من الاهمية فانه لا بد من الحرص عليها في اغانينا ورواياتنا ومسرحياتنا واشعارنا . ومن الخطأ الفادح ان يلجا ادباؤنا وفنانوننا الى كتابة انتاجهم الفني والادبي باللغة العامية بجهة ان اللغة العامية اقرب الى ذهن السامع والرجل العادي وهو يزيد ان يفهم الاغنية او القصص او

(1) احمد الزين ، « من احسن ما يروى : دراسة واختيار » ، مجلة الثقافة المصرية . السنة الاولى ، العدد الرابع ، 1939 م ، ص 29 - 41 .

(1) د . كمال بشر « عوامل التوحيد اللغوي » . محاضرة في الموسم الثقافي الاول لكلية التربية بدولة قطر 1975 م ، ص 61-69 .
(2) اسحق موسى الحسيني « العلاقة بين الفصحى والعامية » مجلة الثقافة المصرية . السنة الاولى ، العدد الرابع ، 24 يناير 1939 ، ص 23 - 25 .
(3) د . كمال بشر ، عوامل التوحيد اللغوي - سبق ذكره ، نفس الصفحات .